كُتبت له حسنة ، ومَنْ هَمَّ بها فعملها كُتبت له عَشْراً »[(١)] وهذا يرشدنا إلى أهميـة عقد النيـة قبل الشروع فى العمل لـيثاب عليهـا الإنسان ، فالمؤمن لا يأتى العمل هكذا عشوائياً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] هناك فَرْق بين الكتـابة والإحصاء ، الكتـابة أنْ تكتب الشىء ، لكن لا تضم المكتوبات إلى بعـضـها ، فتـحتاج إلى مَنْ يحـصيها ويعـدُّها ، فالحق سبحانه يسجل علينا الأعمال كتابة أولاً ، ثم إحصاءً وعَدّاً ، والإحصاء والعَدُّ أيضاً فى كتاب مـسجل فيه كل شىء ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] والإمام هو ما يُـؤتَم به ، والمراد هنا اللوح المحفـوظ الذى تأخذ منه الملائكة مهمتها فى إدارة الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[(٢)] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فـى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمـان (حديث ٢٠٦) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثـير فى تفسيره (٣/٥٦٩) : « جـاء عن كثير من السلف أن هذه القـرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يُذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : ظاهر القصة يـدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهـة المسيح ، ولو كان هؤلاء من الحـواريين لقالوا عبـارة تناسب أنهم من عند المسيح عليـه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾ [يس] .

الثانى : أن أهل أنطاكيـة آمنوا برسل المسيح إليـهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمـسيح ، ولهـذا كانت عند النصـارى إحدى المـدائن الأربعة اللاتى فـيهن بتـاركة ، وهُنَّ : الـقدس ، وأنطاكـية ، والإسكندرية ، وروميـة . فإذا تقـرر أن أنطاكيـة أول مدينة آمنت ، فـأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم » .

أولاً : لاحظ أن هذه الآية هى التى ستفسر لنا مسألة أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم (١٣)﴾ [يس] نعرف أن الضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوة بحيث يؤثر الجسم الضارب فى المضروب ويؤلمه ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، فإذا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة عبث لا جدوى منها .

ومن ذلك قول الرافعى(١) رحمه الله مخاطباً مَنْ يهزأ من قدر الله :

أيَا هَازئاً منْ صُنُوفِ القَدرِ بنفسِكَ تعنُف لاَ بالقَدَر
وَيَا ضارباً صَخْرةً بالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أمْ ضَرَبْتَ الحَجَر(٢)

وفى مادة ضرب يقولون : ضريب الشىء من ضربه يعنى من شبهه وشكله ، فإنْ وقف اثنان فى مسألة ما ، اذكر لهما مثلاً مطابقاً لها وقُلْ لهما : هذه مثل هذه . وأكرم مَثَل فى القرآن ضربه الله تعالى لبيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما يظن البعض ، هو قوله سبحانه :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

(١) هو مصطفى صادق عبد الرازق الرافعى ، عالم بالأدب شاعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده فى بهتيم بمنزل والد أمه عام ١٨٨١ م ، وتوفى بطنطا عام ١٩٣٧م عن ٥٦ عاماً ، له رسائل فى الأدب والسياسة ، ديوان شعره فى ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « وحى القلم » و « المعركة » فى الرد على طه حسين .

(٢) لم أقف على هذه القصيدة للرافعى ، ولكن له قصيدة من بحر البسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أولها : يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر .

هذا مَثَل لتنوير الله للمنوَّر ، وليس مثلاً لنور الله تعالى ؛ لأن نور الله كمال لا يُحَدُّ ، وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات نوره سبحانه ، بدليل أنه في يوم القيامة لا تكون هناك شمس تنير ، ولا قمر يضيء ، إنما ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (٦٩)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش بالمسبِّب مباشرة ، في الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل ، وأرضاً تنبت ، وماءً يروى ، هذه أسباب لله يعيش عليها الإنسان ، وربما ظنَّ أنه أصيل في الدنيا ، وربما اغترَّ بما أعطاه الله ؛ لذلك يجعل الله هذه الأسباب تتخلَّف بعض الأحيان ، وتعزّ علينا ليلفتنا إليه سبحانه ، ويقول لنا : لا تغترُّوا بالأسباب ، وتغفلوا عن المسبِّب .

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناسَ جدبٌ وقَحْطٌ قد يطول حتى يُشرف الناسُ والدوابُّ على الهلاك يشرع لنا صلاة الاستسقاء فيهرع الناسُ إلى الله معهم دوابّهم ونساؤهم وأطفالهم ، حتى أنهم يُغيِّرون هندامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين منه السُّقْيا .

فكأن الله تعالى خلّف أسبابه ليُذكِّرنا به سبحانه ، وليُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسباب وراءها مُسبِّب قادر أنْ يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخَّرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان ، ويظن أنها ملْكه ورَهْن إشارته ، والحقيقة أنها هبَة من الله إنْ شاء تركها ، وإنْ شاء سلبها ، بفصل السيال الكهربى بين الجارحة والعقل ، فتشل الجارحة ولا تتحرك ، فيريد أنْ يرفع يده فلا يستطيع .

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزِّع المعونات على دول العالم ، وهى أكثر الدول تقدُّماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصل فيها الماء إلى أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بلد زلازل بطبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : بلادنا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث فى (سخاليد) ، فلم تُجْدِ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات .

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترّ بالأسباب ، وننسى المسبب سبحانه ، وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين تعزُّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام] وكأن الله تعالى يُعلِّمنا كيف نُحنِّنه علينا حين نقول : اللهم افْرِج عَنَّا ما نحن فيه .

وضَرْب المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها ، وأكرم مَثل ضربه الحق سبحانه لتنويره كما قلنا ؛ لأن نورَ الله لا مثيلَ له ، فقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ (٣٥) ﴾ [النور] أى : تنويره ﴿ كَمِشْكَاةٍ (٣٥) ﴾ [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن المشكاة هى (الطاقة) الموجودة فى الحائط ، وهى عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمُّونها الكوة ، وهى موجودة فى بيوت الفلاحين المبنية بالطوب اللَّبِن ، وهذه الكوة تعمل على تجميع الضوء بحيث لا يتبدد هنا وهناك .

هذه المشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ (٣٥)﴾[النور] ولك أنْ تتأمل كم ميْزة فى هذا النور الذى يصدر من مشْكاة تجمع الضوء ، ثم مصباح ، هذا المصباح فى زجاجة تنقى ضَوءه وتُصفِّيه ، بحيث لا يصدر منه دخان ؛ لأن الزجاجة تسمح بالهواء على قدر حاجة المصباح ، وهذه الزجاجة ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة مثل الكوكب الدرى . يعنى : مضيئة بنفسها ، من الدُّرة .

ثم إن هذا المصباح يُوقَد بزيت من أرقى أنواع الزيوت هو زيت الزيتونة ، هذه الزيتونة لا هى شرقية فتكون حارة ، ولا هى غربية فتكون باردة ، فهى معتدلة المزاج نقية ، حتى أنَّ زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار .

فهو إذن من صفائه يكاد يضىء بذاته ؛ لذلك يختم المثل بقوله سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥)﴾ [النور] كذلك يُنوِّر الله هذا الكون الواسع كما يُنوِّر هذا المصباح هذه الكُوَّة الصغيرة .

لكن ، لماذا يضرب لنا الحق سبحانه هذا المثل ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه حينما خلق الإنسان ، وجعل له حركة فى الحياة احتاجت هذه الحركة إلى نور حسِّى يهدى حركته الحسية ، وإلى نور معنوى يهدى حركته المعنوية ، فالنور الحسِّىُّ نأخذه من الشمس نهاراً ، ومن القمر ليلاً ، فإنْ عَزَّ علينا النور اصطنعناه ، كُلٌّ على قدر إمكاناته ، فواحد ينير طريقه بشمعة ، وآخر بلمبة (نمرة خمسة) ، وآخر بالنيون والفلورسنت مثلاً ، فإذا ما أشرقتْ الشمس ، وجاء نور الله استغنى الناسُ عن أنوارهم الصناعية ، وأطفئوا مصابيحهم وتساووا جميعاً فى نور الله ، إذا طلعتْ الشمس فكلنا فى الأَخْذ بنور الله سواء .

فما دام نور الله قد ظهر ، فلا نورَ لأحد مع نور الله ، كذلك فى

المعنويات ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يقول لنا : إذا جاءكم حكم الله ، فلا حكمَ لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذى جاءنا فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥) ﴾ [النور]

ولكُلِّ مَثَل مضرب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً يطيل فى مدح ممدوحه قال : لا بُدَّ أنه بخيل ، فاحتاج إلى كل هذا المدح ليُحنِّنه على مادحه فيعطيه ، وقال فى ذلك[1] :

وإذَا امْرؤٌ مَدَح امْرَءاً لنَوالِه وأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أطَالَ هجَاءَهُ
لَوْ لم يُقدِّر فيه بُعْد المسْتَقى عنْد الوُرود لما أطال رشَاءَهُ[2]

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الحبل ، وهو الرِّشَاء الذى يُربط به الدلو .

ومن أمثال القرآن لتوضيح مسألة الشرك بالله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعنى : حين يتعجبون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يختلفون فى هذه المسألة ، اضرب لهم هذا المثل وطوِّقهم به ، يعنى : كيف تتعجَّبون من عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وفى حياتكم العملية مثْلُ ذلك ، فهل يستوى عندكم عبد يتنازعه أكثر من سيد وعبد لسيد واحد ؟ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومى الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ ونشأ بها ، مات فيها مسموماً قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه وكان سبباً لوفاته .

(٢) هذان البيتان من قصيدة لابن الرومى من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أولها :
كل امرىء مدح امرءًا لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه

كذلك أنتم فى عبادتكم غير الله : كيف تذهبون إلى عبادة آلهة متعددة ، وتتركون الإله الواحد الحق ، إذن : يسوق الحق سبحانه للكفار هذا المثَل ليُجلِّى لهم قضية وقفتْ فيها عقولهم .

والمثَل فى أدبنا العربى له مورد ومضرب : مورد المثل هو الحادثة التى قيل فيها المَثل ، ومضرب المثل هى الحادثة المشابهة للمورد الأصلى ، فكأن المورد الأصلى للمثل يؤدى إلى حقيقة متينة ينبغى أنْ نحافظ عليها ونُكررها فى الموقف المشابه ، فمثلاً حين ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال العام ، ويأتى قبل الامتحان ليذاكر ، لك فى هذا الموقف أن تقول (قبل الرِّماء تملأ الكنائن)[1] فهذا مثَل يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه .

فإنْ تحدَّاك رجل مثلاً وادعى أنه أقوى منك لك أنْ تقول له : (إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً)[2]

والمثل يُقال كما جاء دون أنْ نغير فى لفظه شيئاً ، فلو أرسلتَ مثلاً رسولاً ليأتى لك بالأخبار تقول له حين يعود : (ما وراءكَ يا عصام)[3] كذلك إنْ كانوا مثْنى أو جمعاً ، فالمثل يلزم صيغة

---

(١) هو مثَل يضرب فى الاستعداد للنوائب قبل حلولها ، ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وكذا الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد (كتاب الجوهرة فى الأمثال) .

(٢) أى : لاقيتَ من هو أشد منك . ذكره أبو منصور الثعالبى فى كتابه « التمثيل والمحاضرة » ، وكذا الزمخشرى فى « المستقصى فى أمثال العرب » .

(٣) قال أبو عبيد : من أمثالهم فى الاستخبار قولهم : ما وراءك يا عصام ؟ يقال : إن المتكلم به هو النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير الجرمى حاجب النعمان وكان مريضاً ، فسأل النابغة عصاماً عن النعمان . ذكره أبو عبيد بن سلام فى « الأمثال » ، وقد أورد أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » أن عصاماً امرأة وقد كانت مرسلة من الحارث بن عمرو الكندى إلى بنت عوف الكندى ، فلما رجعت إليه قال لها : ما وراءكِ يا عصام ؟ فوصفتها له .

المفرد المؤنث ؛ لأنه أوَّل ما قيل قيل لواحدة اسمها عصام . ونحن نحتفظ بلفظه لا نُغيره ، فلا نقول ما وراءكما ولا ما وراءكم . ويُشترط فى المثَل أنْ يكون مُوجزاً يخفّ على اللسان .

ومن الأمثال قولهم (قد يضرط العير والمكواة فى النار)[1] فالبعير حين يرى المكواة فى النار يعرف أنه سيُكوى بها ، وهى طريقة مُتَّبعة عند العرب لعلاج مرض (العُر)[2]، فساعة يراها البعير تجرى عليه بطنه ، ويحدث منه ضراط وإسهال ، وهذا مثَل يُضرب لمن يفاجئه العقاب المعَدّ له .

وهنا فى قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (١٣) ﴾[يس] يعنى : يا محمد اضرب لمن كفر بك وكذَّبك وعاندك وآذاك مثلاً أصحاب القرية ، فالأمر لسيدنا رسول الله ، والضرب للكافرين به المعاندين له ، والمعنى : قل لهم مَثَلكم مثَل أصحاب القرية .

قالوا : هى أنطاكية بلدة من لواء الأسكندرونة التابع لتركيا ، وقد أرسل إليها سيدنا عيسى ـ عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام ـ رسولين لهداية أهلها ، فلما ذَهَبا كذَّبهما القوم ، فعزَّزهما عيسى عليه السلام وقوّاهما بثالث ، فلم يزدادوا إلا تكذيباً وعناداً ، لكن خرج من القوم رجل سمع من الرسولين الأولين ، فآمن ، فلما سمع أن القوم

---

(١) ذكره عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .

(٢) مرض « العُرّ » : قروح تخرج فى مشافر الإبل وقوائمها . ذكره ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « أدب الكاتب » قال الجاحظ فى كتاب الحيوان فى خطبة كتابه أن العرب كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم ، فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم .

يريدون تعـذيب هؤلاء الرسل أسرع ليـقف المـوقف الحقّ مع الرسل ضد أهل القرية ، هذا هو المثل .

ومعنى ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)﴾[يس] أى : مُرْسلون من الله ، فما إرســال عيسى لهمـا إلا من باطن إرسال الله ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (١٤)﴾[يس] أى : قوّيْناهما به ، والمراد قوّيْنا الحق الذى يحملانه ، فإرســال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهـما ، إنما تأييد للحق ، بدليل أنه سـبحانه لم يَقُلْ فـعززناهمـا ، وهذه من دقة الأداء القرآنى وبلاغتـه ، فلو جاء الحق على لسان غيـرهما سنؤيده أيضاً . إذن : الاعتبار هنا ليس للأشخاص ، إنما للحق الذى جاءوا به .

وهذه المسألة لها نظير فى قصـة سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ (٣٥)﴾[القصص] فكأن هارون عليه السلام جـاء تعزيزاً لمـوسى نفســه لا للحق الذى أُرسلَ به كـما فى القصة السابقـة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين ، فمـوسى عليه السلام هو الذى طلب من ربه أنْ يشُدَّ عـضده ، واختـار لذلك أخاه هارون ، فموسى المخـتار للرسالة يُقرُّ على نفسه ، ويطلب المســاعدة والتأييد بأخيـه ، فكأنه عليه السلام يحب الحقَّ ، ويريد نُصْـرته ، ولو جاءت هذه النُّصْرة من غيره .

سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام سفارة بين المـتكلم والمخاطب ، المتكلم ينقل خواطر نفسه ومراداته إلى المخـاطب ، فإذا كان المخاطب خاليَ الذِّهْن عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْســلاً دون تأكيد ، فإذا لم يكُنْ خاليَ الذهن عـن الموضوع وعنده شكٌّ أو إنكار أو تـكذيب فلا بُدَّ أن تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقـباله للأمر ، فإنْ كان شاكّـاً أكدتَ له الكلام بمؤكِّـد واحد ، وإنْ كان مُنكراً جـئْتَ له بأكثر من مُـؤكِّد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

فلا بُدَّ أن الرسولين الأوَّليْن قالا للقوم : نحن مُرْسلون إليكم من قبَل نبى الله عيسى لكن كذَّب القوم ، فلما جاء الثالث كان لا بُدَّ أنْ يزداد الكلام تأكيداً ، فقالوا : ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾[يس] فأكَّدوا الكلام هنا بأكثر من مؤكِّد ، ومع ذلك كُذِّبوا أيضاً :

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧)﴾

فلما كذَّبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النحو : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾[يس] وكل كلمة من هذه العبارة فيها تأكيد ، أولاً بإنَّ ، ثم أسلوب القصر فى تقديم الجار والمجرور إليكم ، ثم لام التوكيد فى (لمرسلون) ، إذن : على قَدْر الإنكار يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً : ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥)﴾ [يس] ، ثم ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ (١٥)﴾[يس] ، ثم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

وقولهم : ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥)﴾[يس] يعتبرون أن بشرية الرسل قَدْح فى الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكُنْ الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

هذا أول ردٍّ عليهم ، فالذين يمشون على الأرض بشر ليسوا ملائكة .

وفى موضع آخر يجارى الحق الخَلْق ، فيقول : وحتى لو جاء الرسول مَلَكاً لا بُدَّ أنْ ينزل على صورة البشر ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً (٩)﴾ [الأنعام] وإلا كيف تروْنه ؟ وكيف تتلقَّوْن منه على صورته الملائكية .

إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم لتصحَّ الأُسْوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة فى الرسول الملَك ، وهو لا يعصى الله أصلاً ، والرسول مُطالب أنْ يُبلِّغ منهج الله ، وأنْ يُطبقه بنفسه ، لذلك قال سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١)﴾ [الأحزاب] يعنى : يُطبق هو المنهج الذى جاء به قبل أنْ يُبلِّغه للناس .

وقولهم : ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ (١٥)﴾ [يس] دلّ على غبائهم فى الأداء ، فعجيب منهم أنْ يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة ، وهم لا يؤمنون به ، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولاً يدلُّهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إذن : يعترفون بالحيثية التى تدينهم ، ثم يزيدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم ، فيقولون : ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾ [يس] فكلمة ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ (١٦)﴾ [يس] حلّتْ محلّ القسم : لأنهم يُشْهدون الله على صدْق رسالتهم ، والقسم عند العرب لإثبات قضية مَختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ (١٦)﴾ [يس] فالأمر إما أنْ يكون صحيحاً ، أو غير صحيح ، فإنْ كان غير صحيح فقد كذبوا على الله .

وقد أجمع العرب على أن الكذبة الفاجرة تُوجب خراب الديار - هكذا يعتقدون - وفى حديث النبى ﷺ ما يدل على أن الكذب يجعل الديار بلاقع[1]، ولما سُئل ﷺ: أيسرق المؤمن؟ قال: نعم. أيزنى المؤمن؟ قال: نعم. أيكذب المؤمن؟ قال: لا[2].

فالكذب مذموم منهيٌّ عنه، حتى عند غير المؤمنين بدين؛ لذلك رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله ولو كانوا يعلمون أنها كلمة تقال ليس لها مدلول لَقَالوها، لكنهم يعلمون مدلولها ومعناها، يعلمون أنها تعنى أن العبادة لا تكون إلا لله، وأن الأمر والنهى والسيادة لا تكون إلا لله.. الخ لذلك تأبَّوْا فلم يقولوها، لأنهم لا يريدون مدلولها.

هؤلاء الكفار فى تكذيبهم للرسل يعتقدون أنهم بذلك يَغَارُونَ لله وينتقمون من الرسل الذين يكذبون عليه سبحانه، فيقولون:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

كأنهم يقولون للرسل: ما دُمْتم كذبتم على الله وقُلْتم ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ .. ١٦﴾ [يس] فى أمور نظنكم فيها كاذبين، فقد تطيَّرنا بكم يعنى:

(١) بلاقع جمع بلقع، وهى الأرض القفر التى لا شىء بها، وقد أخرج البيهقى فى السنن الكبرى كتاب الأيمان - باب اليمين الغموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شىء أُطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم، وليس شىء أعجل عقاباً من البغى وقطيعة الرحم، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع».

(٢) أورده بهذا اللفظ المتقى الهندى فى منتخب الكنز (١/٣١٥) على هامش مسند أحمد من حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابن عساكر. وأورد أيضاً أن أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل يكذب المؤمن؟ قال: لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر مَنْ إذا حدَّث كذب. وعزاه للخطيب البغدادى فى المتفق.

تشاءمنا . والتطيُّر من الطِّيَرة ، وكانت عادة معروفة عند العرب ، فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأتي إلى طير فيزجره ويُطلقه ، فيرى إلى أين يطير : فإنْ طار إلى اليمين أمضى ما ينوى عليه ، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم ، وقد حرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها .

وقولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا (١٨)﴾[يس] أى : عما تقولونه من أنكم مُرْسَلُون بمنهج ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾[يس] فجمعوا عليهم الرجم والعذاب الأليم ، والرجم غير العذاب ، الرجم رَمْيٌ بالحجارة حتى الموت ، فهو إنهاء للعذاب ؛ لأن التعذيب إيلام حى ، فمَنْ مات لا يستطيع أنْ تُعذِّبه ، لذلك قالت العرب : لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

لذلك لما ادَّعى أحد القضاة أن القرآن ليس فيه نَصٌّ على الرجم : قلنا لهم : صحيح ، ليس فى القرآن آية تنص على الرجم ، لكن أيهما أقوى فى التقنين : الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعَدُّ حُجة ؟ لا شكَّ أن الفعل أقوى حجة ، لأن الكلام يمكن أنْ يؤوَّل ، أمَّا الفعل فلا تأويل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم فى ماعز والغامدية.

إذن : الاحتجاج هنا ليس بالنصِّ القولى ، إنما بالفعل من رسول الله الذى فوَّضه الله فى أنْ يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر] والحق سبحانه لا يأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أموراً يُشرعها .

وهذه من ميزاته ﷺ على غيره من الرسل ، فكل رسول ما عليه إلا أنْ يُبلِّغ الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأُمر أن

يُبلِّغَ عن الله ، وترك له بعض الأمور ، وفوّض أنْ يشرع فيها .

لذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

لذلك حين نستقرىء آيات الطاعة تجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٩٢) ﴾ [المائدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٩) ﴾ [النساء]

فتكرار الفعل (أَطِيعُوا) يعنى : أن الجهة مُنفكة ، فلله تعالى أمر وللرسول أمر ، يعنى : أطيعوا الله فى التقنين الإجمالى العام ، وأطيعوا الرسول فى تفصيل ما أجمل ، ففى الزكاة مثلاً جاء الأمر العام بأداء الزكاة ، لكن لم يحدد الحق سبحانه له نصاباً ، هذا النِّصَاب بيَّنه سيدنا رسول الله . إذن : لله فيها أمر ، وللرسول أمر .

أما إن جاء الأمر (وأطيعوا) واحداً وعطف رسول الله على الله ، ولم تُكرر الطاعة مع المطاع ، فاعلم أنَّ الأمر واحد قاله الله وقاله رسول الله ، فطاعة المطاع الثانى من باطن طاعة المطاع الأول ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] فلم يقُل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ؛ لأن طاعة أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، وليس لهم طاعة مستقلة منفصلة ، بل طاعتهم فى ظلِّ طاعة الله وطاعة رسول الله .

إذن : الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإنْ قال قائل : نريد أنْ نسمع كلام الله فى هذه المسألة نقول : نعم ، هناك كلام بالنصِّ وكلام باللازم ، والحق سبحانه حين تكلم عن الإماء فى هذه المسألة قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥) ﴾ [النساء]

والعذاب كما قلنا : إيلام حَىٍّ أمَّا الرجم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعـذاب ؛ لذلك بيَّن الحق سبحـانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخـرج الرجم ؛ لأن الرجـم لا يُنصَّف . إذن : فـالنصف ليـس على الإطلاق وكونه يخصُّ هنا العـذاب ، فهذا يعنى أنَّ عليهن الرجم أيضـاً كاملاً ، لا يُنصَّف .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعالى فـى قصـة سليـمان عليـه السـلام والهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح وغير القتل .

وقـولهم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ (١٨) ﴾ [يس] الرجم قـد يُطلـق على القـول ، لنرجمنَّكم بالقول ، وقد يكون الرجم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فَيُراد منه الإيلام .

﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾

معنى ﴿ طَائِرُكُم (١٩) ﴾ [يس] يعنى : تشـاؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ (١٩) ﴾ [يس] أى : مـلازم لكم ، والمـراد هنا الـكفـر ، والهـمـزة الأولى فى ﴿ أَئِن (١٩) ﴾ [يس] للاستفهام و (إنْ) أداة شرط وجوابها محذوف تقديره : أئن ذُكِّـرتم بالله وبمنهج خـالقكم ، وبمـا يُسعـدكم فى دنيـاكم تكون النتـيجة أنـكم تهددون المـذكِّر لكم بالرجم وبالعـذاب الأليم ، بدل أنْ تتبركوا به وتُعينوه وتتبعوا ما جاءكم به .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ [يس] يعنى : مـتجاوزون لـلحدِّ ؛ لأن الأمر بيننا وبيـنكم لم يخرج عن كونه مناظرة كـلامية لم نتـعدَّ فيـها حدود البلاغ بأننا مُرْسَلون إليكم ، فكانت النتـيجة أنْ قابلتم المناظرة

الكلامية بهذا الفعل القاسى المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

فى هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَميَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار(١) .

ونلحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) قال القرطبى : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبّاغاً) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام ، قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبى (٥٦٥٣/٨) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق فى سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة فى تكوينه أنه رجل .

وهمَّة الرجل هى التى تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّى إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : همَم الرجال هى التى تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجلٌ وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثَّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشترى بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتى ، مأمون على خَلْقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرّ دَرَاهِمِى   عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيل

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ⁽٢٠⁾﴾ [يس] يعنى : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ [يس] وقوله ﴿يَـٰقَوْمِ ۝٢٠﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ۝٢١﴾ [يس] لا تُقَال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفْع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ۝٧٢﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْل عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسَلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسى ﴿**وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي** (٢٢)﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأُكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)]

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلَّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شىء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[(٢)]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة . وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] . فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فواجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] وهذا تلطُّف فى عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ (٢٢)﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذى فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما فى نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ (٢٠)﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنى لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندى أنا : ما لى لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] يعنى : إما أنْ يكون المانع من عندى أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك فى الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك فى سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١١٧)﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم لله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخِّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلُّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشعَّ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »(١) وهذه المسألة لم تأتِ إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة من مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صدْق ما شاهد دليلاً على صدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أىِّ حال ؛ لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبيٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف ملَك ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه[١] .

وفى رواية أخرى : مَنْ قُرئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء[٢] .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] يعنى : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث فى فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذى والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوَّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقى : هكذا نُقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذِّبين من قومه ، فقال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ [يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تَقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ
لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا
لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥)﴾

الاستفهام فى ﴿أَأَتَّخِذُ (٢٣)﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذى خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشىء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة فى الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد فى قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد فى حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعنى : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ (٢٣)﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغى تأملها ؛ لأن صفة الرحمة فى الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجرى عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربى على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففى طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجرى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطِىء فعَاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتنى بها ، ويُعمِل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفَارة) وينحت فى الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّى عليك كُنْ لى محباً »[1] أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرِى عليهم ما يضرهم ؟

وفى حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالى ، وفى الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذى نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً فى الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة فى هذا الإخفاق .

فالأب العاقل فى مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بنى ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسْلم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التى تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغى على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التى نريد الوقوف عندها فى هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافى عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافى ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا (٢٣) ﴾[يس] يعنى : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدى ، لأنهم شركاء لله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط فى الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهى غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة فى ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهى ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذى صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لله … منَ القَائمينَ بالأَسْحَار
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ … تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارى
تَخذُوا صَمْتَنَا علَينَا دليلاً … فغدَوْنَا بهمُ وَقُودَ النَّار
لِلْمُغَالى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه … تُنْجِيه رحمةُ الغفَّار

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) ﴾[يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعنى : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه لِيُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعنى : اثنين .

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلى لنا هذه المسألة قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جارية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفع فدْيته ، فإنْ لم يقبل منه العدل بحث عَمَّنْ يشفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعدْتَ الضمير على النفس الجازية - أى : الشافعة - فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهة - على فَرْض أن لها شفاعة - فهى شفاعة مردودة غير مقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سبحانه ، فهم لا يصلحون للشفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهة أكون فى ضلال ﴿مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] بيِّن واضح ، وقوله : ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقول هذا الرجل المؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴿٢٥﴾﴾[يس] ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾[يس] أى : اسمعوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .